ملامح الإبداع الفني في شعر البحتري

للدكتور/ علي محمد علي طلب

شخصية الوليد أبي عبادة البحتري شخصية الشاعر المطبوع والفنان الموهوب ، فقد كان البحتري حسن المذهب نقي الكلام مطبوع التصوير والتعبير ، وكان شعره أرق من النسيم العليل وأعذب من السلافة للنديم ، وله مكانة رفيعة لا يتطلع اليها أبعد الناس أملا في نباهة الذكر استفاضة الشهرة ، فهو أحد الثلاثة الذين رزقوا من الحظوة والذيوع ما جلجل صداه في كل زمان ومكان ، على أن الوليد كان أعمق من رفيقيه في الشهرة (أبي تمام والمتنبي) تأثيرا وأكثرهم أنصارا لديباجته الناصعة وسلاسته المترقرقة ، ووضوح معانيه وضوحا يصل بها الى أعماق القلوب بمجرد النظرة الاولى ، ولا كذلك أبو تمام والمتنبي ، فالاول مغرق في الغموض والالتواء والثاني مولع بمخالفة أهواء الناس (١) ، وحسبه ما قاله أبو العلاء المعري حينما سئل : أي الثلاثة أشعر ؟ أبو تمام أم البحتري أم المتنبي ؟ فأجاب : المتنبي وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري ، وسئل البحتري عن نفسه وعن أبي تمام فقال : هو أغوص على المعاني وأنا أقوم بعمود الشعر (٢) .

---

(١) انظر نظرات أدبية للدكتور محمد رجب البيومي ٤٢/٤ ط زهران القاهرة ١٩٧٠ .

(٢) انظر الموازنة للآمدي تحقيق الشيخ محمد محي الدين ص ١٥ ط السعادة القاهرة .

ونجد ابن الاثير يوازن بينه وبين أبى تمام فيقول «أما أبو تمام فانه رب معان وصيقل ألباب وقد شهد له بكل معنى مبتكر لم يمش فيه على أثر ... وأما أبو عبادة البحترى فانه أحسن في سبك اللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى ، وقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الاطلاق فبينما يكون في شظف اذ يتشبث بريف العراق » (١) ، وهذا يدل على أن أبا عبادة البحترى كان شاعرا مطبوعا جمع في شعره بين مزايا المذهبين : مذهب القدامى ومذهب المحدثين فأخذ عن القديم جزالته وفصاحته وعن الحديث رقته وعذوبته ، ولهذا نراه قد ساير أبا تمام وجرى في ميدانه أول الامر ، فلما رآه قد فارق عمود الشعر وتكلف البديع وقف عند طبعه المطبوع وذوقه النواق ، فسلم في كثير من شعره من المآخذ ، وحكم هو بنفسه على شعره وشعر أبى تمام في كثير من الانصاف حيث يقول وقد سئل : أيكما أشعر أنت أم أبو تمام فأجاب : جيد أبى تمام خير من جيدى ، ورديئى خير من رديئه (٢) .

ولقد ساعدت عوامل عدة في تكوين شخصية البحترى وأثرت في حياته ولونت مشاعره وأحاسيسه بلون خاص امتزج بفكره ووجدانه ،وكان له صدى كبير في تصويره وتعبيره وشعره كله ..

فلقد ولد الشاعر في العام السادس بعد المائتين من الهجرة بقرية (منبج) وهى في الشمال الشرقى من حلب وعلى بعد قريب من غربى الفرات وهى مدينة كبيرة ذات خيرات كثيرة تتميز بحسن الهواء وطيب الماء وفتنة الطبيعة ، وفي هذه البيئة الناضرة التى تفتح فيها الجمال نشأ شاعرنا نشأة شاعرية ملهمة ، ولا عجب في ذلك فالشام معروفة منذ قديم بفضلها على شعرائها اوانها جعلتهم

---

(١) المثل السائر لابن الاثير (القسم الثالث) ص ٢٢٧ ط نهضة مصر القاهرة .

(٢) الموازنة للآمدى ص ١٥ .

أعذب الشعراء ألفاظا وأبدعهم خيالا ، ومن ثم فقد هيأت له هذه البيئة الناضرة أن يتعلق قلبه بين ربوعها بعلوة بنت زرعة الحلبية ، ولعلها كانت الحبيب الاول ، فانه لم يفتر عن ذكرها والتشبيب بها في قصائده التى مدح بها المتوكل وغيره (١) ، ويدلنا شعره على أنه كان يعيش في (منبج) في أرغد عيش وأكرم منزلة ، حتى لقد جعل ذلك مضرب المثل في قوله يمدح أبا نهشل : (٢)

لا أنسين زمنا لديك مهذبا
وظلال عيش كان عندك سجسج (٣)
في نعمة أوطنتها فأقمت في
أفيائها فكأنني في منبج

ولقد تلقى البحترى (٢٠٦ - ٢٨٤ هـ) ثقافته الاولى في منبج وهى لا تزيد على حفظ القرآن الكريم وشيء بليغ الشعر والنثر وتعلم أحكام الدين وسنة الرسول الكريم وأخذ طرف من علوم اللغة وأخبار الفتوح والمغازى وأيام العرب وأنسابهم ، ثم جرى الشعر على لسانه لا يرجع فيه الا الى طبعه مما يدل على أنه ولد موهوبا تلك الملكة الشعرية ، فاستكثر من حفظ الشعر وترديده ليزداد معرفة بفنون الشعر وألوانه ، وعندما أدرك هذه الموهبة الشعرية في نفسه عمل على صقلها وتهذيبها على يد خبيرة مدربة فاتصل بأبى تمام وكان يجلس بحمص للشعراء يعرضون عليه أشعارهم ويسألونه الرأى فيما يعرضون عليه (٤) ، فنوسم فيه

---

(١) انظر الادب العربى وتاريخه للاستاذ محمود مصطفى ٣٨٢/٣ ط الحلبى ١٩٣٧ .

(٢) ديوان البحترى تحقيق الاستاذ عبد الرحمن البرقوقى ١٠٣/١ وما بعدها ط هندية القاهرة ١٩١١ .

(٣) يوم سجسج : لا حر ولا قر .

(٤) انظر البحترى للدكتور احمد بدوى ص٢٥ ط دار المعارف .

أبو تمام النجابة ، رأى عنده شاعرية حية فأقبل عليه وسر به ، بل قال له : أنت أشعر من أنشدنى (١) ٠

وظل البحترى على اتصال بأستاذه أبى تمام الذى لم يبخل عليه بالتوجيه والارشـــاد وشرح ما غمض عليه من ألوان القول ، ونقلت لنا كتب الادب بعض هذه الدروس والوصايا ، كهذه الوصية التى ذكرها ابن رشـــيق في كتابه (العمدة) والتى يقـول فيها « اذا أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا والمعنى رشـــيقا وأكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الاشواق ولوعة الفراق ، واذا أخذت في مدح سيد ذى أياد ، فأشهر مناقبه وأظهر مناسبه وأبن مفاطه وشرف مقامه ، وتقاص المعانى واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالالفاظ الزرية ، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الاجسام » (٢) ٠

وهذه الوصـــية ان دلت على شيء ، فانما تدل على اهتمام أبى تمام بتلميذه البحترى ، وتدبه من جهة أخرى على أن البحترى قد أحسن اختيار استاذه ، بما لديه من حذق ومهارة في صـناعة الشعر ، وها هو يضع أمام عينى البحترى دستورا قويما لاحسانه صياغة الشعر ، اذ يصف له الجودة التى يقوم عليها النســـيب والمديح جميعـــا مع العناية بدقائق المعـانى وجمـــال الالفـــاظ والاساليب ، ولا شك في أن هذه وصية من وصايا كثيرة ساعدت على تكوين شخصية الادبية وصقلت موهبته الشعرية ، ووجهته الوجهة الصالحة الرشيدة ٠

---

(١) انظـر معجـم الادباء لياقوت الحمـوى ١٩/٢٤٩ ط دار المأمون بالقـــاهرة ٠

(٢) العمدة لابن رشيق القيروانى تحقيق الشيخ محى الدين ١٠٩/٢ ط حجازى ١٩٣٤ القاهرة ٠

وكثيرا ما يعترف البحترى بفضل أستاذه أبى تمام فقد وجهه الوجهة السليمة في قرض الشعر ، ومهد له طريق الشهرة وذيوع الصيت ، ومما يدل على وفائه لاستاذه وانصافه له أن الحسين بن اسحاق قال له يوما : ان الناس يزعمون أنك أشعر من أبى تمام ، فقال : والله ما ينفعنى هذا القول ، ولا يضر أبا تمام ، والله ما أكلت الخبز الا به ، ولوددت أن الامر كما قالوا ، ولكنى والله تابع له لائذ به ، نسيمى يركد عند هوائه ، وأرضي تنخفض عند سمائه » (١) .

وبالاضافة لما ذكرنا لا ننسي تحدر البحترى من أصلاب عربية ، فهو ينتمى الى قبائل طيء الضاربين على شواطىء الفرات الى منبج ، فكان له من كل هذه الاسباب شاعرية موروثة ومكتسبة تم بها طبعه واكتملت بها شخصيته .

ومن الحديث السابق نستطيع أن نقول : ان هذه العوامل قد تضافرت في أن تجعل البحترى ينبغ في الشعر ، ويتخذ لنفسه طريقة فيها محاسن أستاذه أبى تمام من الدقة في المعانى ولطف الاخذ من المتقدمين الى ما حاكى فيه البدو من صدق التعبير وحسن الاداء (٢) ، لا سيما وقد أخذ عنهم الفصيح ، وارتشف منهم أفاويق البلاغة ، الى جانب ما امتاز به من رقة الالفاظ وسهولة الاساليب مع تجنب الاغراق في المعانى والتعقيد في الصياغة ، ومن ثم غلبت عليه وعلى شعره جزالة القدامى ورقة المحدثين وجمع فيه بين فضيلتى البداوة والحضارة (٣) .

---

(١) معاجم الادباء لياقوت الحموى ١٩/٢٤٩ ، مهذب الاغانى للشيخ محمد الخضرى ٧/١٨٦ ط دار الكتب المصرية ١٩٢٦ .

(٢) انظر تاريخ الادب العربى للاستاذ السباعى بيومى ٣/٣٨٨ نشر الانجلو المصرية ١٩٥٣

٣/٣٨٨ نشر الانجلو المصرية ١٩٥٣ .

(٣) انظر معالم الشعر وأعلامه للدكتور محمد نبيه حجاب ص ٢٦ ط دار المعارف ١٩٧٣ .

اذن نستطيع بعد هذا أن نحدد ملامح ابداع الفنى في شعر البحترى فيما يلى :

١ ـ شاعريته الفذة :

تتجلى شاعرية البحترى في الجمع بين الاسلوب البدوى المطبوع وبين الاخذ ببعض أساليب الحضارة التى عاش في ربوعها وتأثر بها ؛ وقد استطاع الشاعر أن يمزج في حذق واتقان بين أسلوبه البدوى الرصين وبين بعض مظاهر الحضارة العباسية الجديدة ، ومن ثم فالبحترى لم ينفصل تماما عن روح العصر ، فقد كان يلائم بين شعره وبين تلك الروح عن طريق ثقافة واسعة بشعر أستاذه أبى تمام وشعر من سبقوه أمثال مسلم بن الوليد وأبى نواس وبشار المرة تلو المرة والمرات تلو المرات ، حتى أصبح ذلك جزءا لا يتجزأ من جوهر شعره (١) .

واذ أنعمنا النظر في شعر البحترى نجد أنه سلك في شعره مذهب القدماء الذين حافظوا على ألفاظهم وأساليبهم ، فكان شعره سلسلا رائع الديباجة جميل التصوير ليس فيه تعقيد ولا مبالغة ولا صنعة متكلفة ، ومن ثم كان شعره قريبا من قلوب الناس وأفئدتهم ، لان من يقرأ شعره يجد فيه متعة النفس وراحتها ، ويحلق معه في سماء الخيال الخصب الذى لا يكدره الغوص والتكلف والتعقيد في فهم المعانى ، كما أن شعره يعبر عن الانفعالات النفسية والعواطف الانسانية بصدق واحساس معبر صادق ، ولهذا تستجيب له القلوب وتتفتح له الافئدة ، وتطرب له النفوس الظامئة .

---

(١) انظر تاريخ الادب العربى في العصر العباسي الثانى للدكتور شوقى ضيف ص ٢٨٧ ط دار المعارف ١٩٧٧ .

وقد افتخر البحترى بأصالة شعره وما اجتمع له من العقل والتجربة في فنه الحر الذى خلا من تكلف حدود المنطق ، فهو لم يسأل عن الشيء ما سببه وما نوعه كما يفعل أهل المنطق (١) وفي ذلك يقول (٢) :

كلفتمونا حدود منطقتكم
في الشعر يلغى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج (م)
بالمنطق ما نوعه وما سببه
والشعر لمح تكفى اشارته
وليس بالهذر طولت خطبه
واللفظ حلى المعنى وليس يريك (م)
الصفر حسنا يريكه ذهبه (٣)

فالبحترى يكره التعقيد في معانيه مما جعله ينأى عن أن يحلأ شعره بهذه المحسنات البديعية التى أغرم بها استاذه لما يجره الاغراق في استعمالها من تعقيد يجعل الشعر مظلما لا يشع منه نور المعنى ولا يقرب فيه على يسر ادراك الهدف ، وشاعرية البحترى تجعله على حدود المنطق ومقاييس الفلسفة ، ويكفى عنده التخيل المقبول الذى لا ينأى عن الحقيقة والواقع ، ولا يريد الشاعر أن الكذب وتغيير الحقائق مما يصلح في الشعر ويكون مقبولا فيه ، فان مثل هذا الشعر لا يكذبه الناس بالحجج المنطقية ولكن يكذبونه

---

(١) انظر تاريخ الادب العربى لبروكلمان تحقيق الدكتور عبد الحليم النجار ٤٨/٢ ط دار المعارف القاهرة .
(٢) ديوان البحترى ٣٨/١
(٣) ذو القروح : أمرؤ القيس . الهذر : الخلط والتكلم بما لا ينبغى . الصفر : النحاس الاصفر .

بالرجوع الى حقائق الحياة ، وهكذا يكون الكذب المقبول في الشعر هو هذا الخيال الذى يعين على تصور الحقيقة (١) ٠

وقد أحيا البحترى عمود الشعر العربى بعد أن زعزعه تجديد بشار بن برد وأبى نواس وأبى تمام ويتمثل في شعره غاية الذوق والترف الفنى ، وأثر الحضارة في الشعر واضح في صنائعته وموسيقاه وعذوبة ألفاظه وأسلوبه (٢) ٠

وهذا يدل على أن البحترى بشاعريته الفذة استطاع أن يحافظ على الاصول المتوارثة والتقاليد الفنية التى التزمها القدماء في الافكار والمعانى والاخيلة والاوزان والاساليب والصور وغيرها في غير جمود وتجاهل لمظاهر الحضارة الجديدة التى عاش في كنفها وربوعها ، وهذا سر شاعريته الفذة وعبقريته التى شهد بها جميع النقاد القدامى والمحدثين ٠

وقد أشار الآمدى الى أصالة البحترى ومحافظته على الاصول والتقاليد الفنية المتوارثة بقوله « انه أعرابى الشعر وعلى مذهب الاوائل ، وما فارق عمود الشعر المعروف ، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الالفاظ ووحشي الكلام » (٣) ٠

في الحقيقة ان البحترى قد أحيا عمود الشعر العربى ، ولكنه لم يكن مكبلا بقيوده كلها ، فلم يقف عند الحدود القديمة المتوارثة كلها ، ولكننا نجد في شعره مسحة من الصنعة التى تلائم عصره وتساير بيئته الجديدة التى عاش فيها بعد انتقاله من البادية الى

---

(١) أنظر البحترى للدكتور أحمد بدوى ص ٤٨

(٢) الاداب العربية في العصر العباسي الاول للدكتور خفاجى ص ١٨٢ ط دار الطباعة المحمدية ٠

(٣) الموازنة للآمدى تحقيق الشيخ محى الدين ص ١١ ٠

الحاضرة ، ومن الانصاف أن نقول : ان الذى فعله البحترى هو الوصول بالزخرفة الى سبيل رمثة سهلة تجعلها كفيلة بالتعبير الصحيح عن عقلية عصره ، وما كان ينطوى عليه من ترف وتكيف بالبيئة الحضارية الجديدة (١) ٠

وهكذا كان البحترى يستخدم بعض أدوات الصنعة ولكن في يسر وسهولة ، ودون تعقيد كما نرى عند جماعة المتصنعين في عصره (٢) ٠

ولقد بين البحترى منهجه الشعرى في أبيات نسوقها للدلالة على شاعرية الرجل وعبقريته وأصالته حيث يقول : (٣)

ومعان لو فصلتها القوافي
هجنت شعر جرول ولبيد
حزن مستدعل الكلام اختيارا
وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركن (م)
به غاية المراد البعيد
كالعذارى غدون في الحلل البيض (م)
اذا رحن في الخطوط السواد (٤)

ويؤكد ما قلنا من أن البحترى قد التزم بالاصول القديمة مع

---

(١) انظر المرشد الى فهم أشعار العرب للدكتور عبد الله المجذوب ١٧٥/٢ ط الحلبى ١٩٥٥ ٠
(٢) انظر الفن ومذاهبه في الشعر العربى للدكتور شوقى ضيف ص ١١٠ ط لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٥ ٠
(٣) الديوان ٢٠٦/١ ٠
(٤) جرول : هو الحطيئة وهو من الشعراء المخضرمين وتوفي نحو سنة ٣٠ هـ ٠٠ ولبيد : شاعر من الشعراء الفوارس المخضرمين وتوفي سنة ٤١ هـ ٠

تصرف حسن في ألوانه الشعرية ما قاله أبو الفرج الاصفهانى عنه حيث يقول « شاعر فاضل حسن المذهب نقى الكلام مطبوع ، كان مشايخنا رحمة الله عليهم يختمون به الشعراء ، وله تصرف حسن في ضروب الشعر » (١) .

ويوازن ابن رشيق القيروانى بين مذهب البحترى ومذهب أستاذه أبى تمام في مجال الشعر فيقول «فأما حبيب (٢) فيذهب الى حزونة اللفظ وما يملأ الاسماع منه مع التصنع المحكم طوعا أو كرها ، يأتى للاشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة ، أما البحترى فكان أملح صنعة وأحسن مذهبا في الكلام يسلك منه دماثة وسهولة مع أحكام الصنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة» (٣) ، وهو كلام ناقد له قدره ومكانته المعروفة .

ويرى الدكتور طه حسين أن مرجع جمال شعر البحترى وشاعريته الفذة الى أمرين ظاهرين : أولهما هذه المتانة التى استطاع البحترى أن يجعلها في الالفاظ ، ويرى أن هذه الالفاظ تملأ الفم دون أن يضيق بها ، وتقرع السمع دون أن تؤذيه ، فهى جزلة رقيقة في وقت واحد ، والامر الثانى الذى أكسبه الجمال في شعره ما عنى به من بعض الالوان البديعية في غير تكلف ولا استكراه (٤) .

ومن هنا ندرك أن كثيرا من النقاد متفقون على عذوبة شعره وشاعريته المطبوعة مع رقة المعانى وعدم اغراقه في الصنعة والتكلف الى جانب عنايته بالالفاظ وتنميقها واختيارها ، كما يختار الصائغ

---

(١) الاغانى ١٦٧/١٨ ط الساسي ، تجريد الاغانى لابن واصل الحموى ص ٢١٧٠ ط مصر ١٩٦٣ .

(٢) هو الشاعر أبو تمام .

(٣) العمدة لابن رشيق ١٠٩/١ ط حجازى ١٩٣٤ .

(٤) انظر من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين ص ١٢٠ وما بعدها ط دار المعارف القاهرة .

الماهر الدرر والجواهر فيجعل منها عقدا نظيما يزين به جيد الغوانى والحسان ٠

ولا عجب فالبحترى شاعر اللطف والرقة غير مدافع ، بل هو أرق الشعراء المحدثين جميعهم وأطبعهم وأسلسهم من غير خروج عن مذهب المتانة في السبك واتباع المنهج الفصيح في تعقيد الكلام ، ولكلامه رنين قل أن تجد نظيره عند غيره من الشعراء ٠ نغم تنساب معه الالفاظ انسيابا في سلاسة وخفة ورشاقة ، وهذا سر عبقريته وشاعريته الفذة ، وما أبدع ما قال عنه ابن الاثير أنه أراد أن يشعر فغنى (١) ٠

٢ ـ قوة اصياغة :

لقد كان لنشأة البحترى الاولى واختلاطه بأعراب طىء في البادية ، وارتشافه منهم أفاويق البلاغة والفصاحة أثر كبير في تكوين شخصيته ، فشأ عربى اللهجة كما هو عربى النسب ، فهو يمنى قحطانى من ناحية أبيه ، وهو عدنانى من ناحية أمه التى تنتسب الى شيبان ، وهى قبيلة ينتهى نسبها الى ربيعة من عدنان (٢) ٠

واتصل بكثير من علماء عصره ، فقد روى عنه شعره أبوالعباس المبرد وابن المرزبان محمد بن خلف وأبو بكر الصولى وأبو عبد الله المحاملى (٣) ٠

ولهذا فقد قبس البحترى اللغة فانقادت له ، واستوى على الكلام الفصيح لسانه ، فنجا من مزالق أبى تمام اللغوية على الرغم

---

(١) انظر المثل السائر لابن الاثير (القسم الثالث) ص ٢٢٧ ٠
(٢) انظر البحترى للدكتور أحمد بدوى ص ٢٤ ، العقد الفريد لابن عبد ربه ٢٣٨/٢ ط التجارية القاهرة ١٩٣٥ ٠
(٣) معجم الادباء لياقوت ٢٤٩/١٩ ٠

من أصالة به تتلمذه عليه ، لان الموهبة الفنية لدى أبى تمام قد طبعت بالدرس ، وقصد اليها قصدا ، ولكن البحترى كانت لديه طبيعة فطرية أعدها عن أهل منهج وفصاحة البدو في الصحراء ، كما تنشق النسيم في صباه ، وكما امتد بصره في صحراء المنبج باتساعها مرمى خياله .

وقد حمل البحترى من الصحراء الفاظه الرصينة وأصالة التراكيب لديه ، كما حمل الذوق البدوى في الشعر ومؤداه أن الشعر فكرا ، وليس ثقافة وانما هو عاطفة وخيال وموسيقى تجعل منه عملا غنائيا في الدرجة الاولى (١) .

وقو ةالصياغة عند البحترى تتجلى في اختيار الالفاظ ومواءمتها للمعنى المراد مع الخيال الخصب والموسيقى المعبرة التى تتفاعل مع الغرض تفاعلا واضحا ، وهذه الادور كلها بارزة في شعر البحترى في كل أغراضه وفنونه .

ان اختيار الكلمات وترتيبها كانت سمة من سمات البحترى ، وهو أبرع شاعر عباسي يصور هذا الجانب ، وما بلغ الشعراء من احسانه وتحبيره ، فقد عرف بمهارة واسعة فيه ، وكان يتتبع الالفاظ وينقدها حتى يؤلف منها الفاظا عذبه جميله كأنها حسان عليهن غلائل مصبغات ، وقد تحلين بأصناف الحلى ، فالفاظه عليها رشاقة وأناقة ، ولها صوت جميل كوسوسة الحلى ، بل قد يكون لها خشخشة الحصي ، ولكنه حصي من هذا النوع الذى يقول فيه بعض الشعراء :

يروع حصاه عالية العذارى
فتلمس جانب العقد النظيم

(١) انظر فن المديح للاستاذ أحمد أبى حاقة ص ٢٤٨ وما بعدها ط منشورات دار الشرق الجديد بيروت .

وأما المشاكلة بين اللفظ والمعنى ، فقد كان البحترى يستوفيه استيفاء غريبا ، وله قدرة عجيبة في ملاءمة اللفظ للمعنى دون تكلف ولا استكراه ولا تعقيد . وخير ما يمثل به في هذا المقام رثاء البحترى للمتوكل (١) حيث يقول (٢) :

دحل على القاطول أخلق داثره
وعادت صروف الدهر جيشا تغاوره
كأن الصبا توفي نذورا اذا انبرت
تراوحه أذيالها وتباكره
ورب زمان ناعم ثم عهده
ترق حواشيه ويورق ناضره
تغير حسن الجعفرى وأنسه
وقوض بادى الجعفرى وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءة
فعادت سواء دوره ومقابره
اذا نحن زرناه أجد لنا الاسي
وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
ولم أنس وحسن القصر اذ ريع سربه
واذ ذعرت أطلاؤه وجآزره
واذ صيح فيه بالرحيل فهتكت
على عجل أستاره وستائره
ووحشته حتى كأن لم يقم به
أنيس ولم تحسن لعين مناظره

---

(١) هو جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد خوارزمية يقال لها (شجاع) ولد سنة ٢٠٦ هـ وتولى الخلافة بعد موت الخليفة الواثق سنة ٢٣٢ هـ واستمر خليفة الى أن قتل على يد جماعة من الاتراك سنة ٢٤٧ هـ .

(٢) الديوان ١/٢١٥ .

كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة
بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها
وبهجتها والعيش غض مكاسره (١)

فانك تحس بالقوة والعنف في هذا الرثاء اذ اختار البحترى ألفاظه من ذوات الحروف الضخمة الجزلة ، لانه غاضب ثائر ، وكأنه يندب الالفاظ نحتا ليعبر عن هذا الغضب وتلك الثورة التى أعلنها فيما بعد من القصيدة ، اذ دعا الى الانتقاض على من قتلوا المتوكل ، وليس من شك في أن البحترى كتب هذه القصيدة بمفتاح موسيقى محكم ، فقد عبر بهذه الالفاظ الضخمة عن عاطفة الحزن الثائرة ، حتى لكأن الالفاظ لها قعقعة السلاح ودوى المواقع التعسة الحزينة ، وقد وفق في ربط القوافي بالهاء الساكنة فجعل الصوت بعد انطلاقه على الكلمات والمقاطع ينخفض فجأة عند القافية ، وكأنه لم تعد فيه بقية ، ثم يعلو وينطلق في الاندفاع على البيت الذى يليه ، وما يلبث أن ينخفض فجأة كرة أخرى وهكذا ما يزال الصوت بين ارتفاع وانخفاض كأن الشاعر نائح ، فهو يرتفع بالصوت وما يلبث أن ينخفض به لشدة التأثر والتعب ، وبذلك مثل البحترى زفرات

---

(١) المفردات : القاطول : نهير من دجلة كان عليه القصر الجعفرى • وأخلق : بلى • والدائر : البالى • وصروف الدهر : نوازله • تغاوره : تحاربه • الصبا : ريح طيبة تهب من الشرق • توفي نذورا : أى كأن ذلك نذر عليها لهذا القصر • تراوحه : تنتابه وقت الرواح أى آخر النهار • تباكره : تهب عليه بكرة أى صباحا • حواشيه : جوانبه • قوض : تهدم • باديه : ما كان فيه مما جلب من البادية • حاضره : ما جلب فيه من وسائل الحضارة • نحمل : ارتحل • أجدد لنا الاسي : جدد لنا الحزن • وحسن القصر : نساؤه الجميلات الشبيهات بالبقر الوحشي في جمال العيون • ريع : أفزع • الاطوء : جمع طلا وهى الظبية • مكاسره : جمع مكسر ويقال عود طيب المكسر أى محمود •

الهرن تمثيلا جيدا ، وندب الخليفة المقتول على عرشه ندبا خالدا (١) .

وهكذا كان شعر البحترى في جميع فنونه وأغراضه قد تكاملت له معانى الحسن من قوة الصياغة وألاقة اللفظ ووضوح الغرض وخفة النطق وجمال الجرس وروعة الموسيقى ، ونصاعة البيان وتجانس المصراع ، فلا تعثر فيه على هفوة تافهة ولا كلمة نابية ولا لفظ مستكره ولا تركيب هزيل ، ولا معنى ملتو ولا صياغة غير جيدة ولا حرف ثقيل ولا تأليف متنافر ، حتى لو حاول محاول أن يجعله كله أنغاما ذات ايقاع أو نماذج ذات ابداع لما أعياه أن يكون كذلك ، لانه كان يصدر عن ذهن متدفق ووعى متيقظ ورأى لا ينحرف عن السنن ، ولا يخطىء السمت ، ولا يضل القصد ولا تشتبه عليه المعالم ولا يخطئه الصواب ، ولا تخونه الملكة أو تخذله المقدرة (٢) .

والبحترى مقدرة فائقة في اختيار مطالعه وديباجته ، ولقد ضربوا المثل بديباجته فقالوا « ديباجة بحترية » ، ولقد جاء شعره حسن الديباجه مطرز الحواشى كما جاء مستويا قريب المأخذ مصقول اللفظ سلس الاسلوب ، وقبل ذلك كله رزق سلامة الطبع وصفاء النفس ودقة الحس كما رزق موهبة فطرية خلاقة نالت اعجاب من قرأوا شعره وترنموا بقصائده ، ومن النماذج الدالة على ذلك قوله : (٣)

لى حبيب قد لج في الهجر جدا
وأعاد الصدود منه وأبدا

---

(١) انظر الفن ومذاهبه في الشعر العربى للدكتور شوقى ضيف ص ٦٢ وما بعدها .

(٢) انظر تاريخ الادب العربى في العصر العباسي الاول للدكتور ابراهيم أبى الخشب ص ٢٦٥ نشر دار الفكر العربى القاهرة ١٩٦٦ .

(٣) الديوان ١/١٢٧ .

ذو فنـــون يريك في كـل يـــوم
خلقـــا من جفـــائه مستجدا
يتأبى منعما وينعم اسـعافا
ويدنـــو وصـــلا ويبعد صـــدا
اغتدى راضيا وقد بت غضـبان
وأمسي مولى وأصـــبح عبـــدا
وبنفسي أفدى على كل حـــال
شـادنا لو يمس بالحسن أعدى
مر بى خاليا فأطمع في الوصلَ (م)
وعرضـــت بالســـلام فـــردا
وثنى خـــده الى على خـــوف
فقبـــلت جلنـــارا ووردا
سـيدى أنت ما تعرضت ظلما
فأجـازى ولا خنت عهـــــدا
يـرق لى من مدامع ليس ترقـــا
وارث لى من جوانح ليس تهدا
أترانى مستبدلا بك ما عشت، (م)
بديـلا أو واجـــدا منك نـــدا
حاش لله أنت أفتن ألحـــاظا
وأحلى شـــكلا وأحســـن قدرا

انه السحر الحلال والشـعر الرائق الجميل الذى يسـلب اللب ويستولى على الفؤاد ، فلا تدرى من أى الجوانب تعجب ، أتسحرك الديباجة المطبوعة أم الالفاظ العذبة أم الصياغة القوية أم الموسيقى الساحرة التى تنبعث من ثنايا النص ؟ .

ويعلق الدكتور شوقى ضيف على هذه الابيات فيقول : حقا ان البحترى استوفى فيها كل ما يمكن من وسائل التفوق في فن الصوت ،

فأنت تراه يبدأ فيوفق بين الشطرين في المطلع ويجعلهما مصرعين هذا التصريع الذى كان يعجب به أصحاب البيان ، ولا يكتفى بذلك بل نراه يلائم بين الحروف في الشطرين ، فقد تكررت الجيم في الشطر الاول كما تكررت الدال في الشطر الثانى فأحدث ذلك توافقا صوتيا بين الكلمات ، وما تلبث أن تراه في البيت الثالث يوفق بين الالفاظ توفيقا دقيقا اذ جاء بكلمة يتأبى كأنها مشدودة الى ينعم بواسطة هذا الرباط المحكم منعا ، وهنا نحس ما يصنعه « التوافق الصوتى بين الحروف والكلمات » من صلة في العبارات ، وما يزال البحترى يطلب هذا التوافق الصوتى حتى يأتى في الشطر الثانى بكلمتين ثم أخريين على نسقهما وحركاتهما ، وقد استطاع أن يصل الى ذلك بهذا « الطباق الصوتى » بين يدنو ويبعد ووصلا وصدا ، وان هذا ليلفتنا الى أن الطباق العباسي يمكن أن تعد بعض جوانبه أيضا لونا صوتيا يأتى به الشاعر من أجل الموسيقى ، ومثل الطباق في ذلك هذا التقسيم الذى نراه في البيت والذى كان يعرف به البحترى . والحق أن صاحبنا كان يعرف سر مهنته معرفة دقيقة ، وانظر اليه في البيت الرابع كيف حقق لنفسه موسيقاه بما أحدث فيه من الصلة والقرابة بين كلماته ، فكل كلمة تقبل على اختها ، تقبل أمسي على أصبح ، ومولى على (عبدا) كأن الكلمات من أسرة واحدة ، وليس هذه الاسرة الا أسرة « الطباق الصوتى » وما تستتبعه من تقسيم ، وانظر في البيت الخامس الى الكلمتين : بنفسي أفدى ، ألا تحس أنهما متشابكتان كأنهما عقدتا الخناصر ، وانظر في البيت السابع الى الجلنار والورد تر البحترى يلائم بين ألفاظه ويشاكل بين كلماته حتى يستوعب هذا اللون الذى كان يعجب به أصحاب البديع والذى سمى بعد مراعاة النظير (١) .

ومن الانصاف أن نقول : ان البحترى وهو يستخدم هذه الالوان

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربى ص ٦٥ وما بعدها .

البديعية انما يستخدمها في غير تكلف وتعقيد ولكنه يستخدمها في سهولة ويسر وطبع سليم وذوق رقيق وحس مرهف ٠

وروعة البحترى في شعره لا ترجع في الحقيقة الى استخدامه للوسائل الحضارية الجديدة في الفن ، انما تأتى روعته من فطرته الموسيقية فقد استطاع أن يستخرج من قيثارة الشعر العربى أجمل أصواتها وأعذب ألحانها بحيث نستطيع أن نقول :

انه « موسيقار » الشعر العربى وصداحه الذى يشجى سامعيه بلغة وجدانية منقطعة النظير ، ولا يظن أحد أن هذه الموسيقى الشعرية عند البحترى شيء لا يمكن تحليله ، فانك اذا أنعمت النظر في شعره عرفت أنها تأتى من دقة اختياره للكلمات وتأليفها ، فعباراته بمفرداتها وتراكيبها ليس فيها أى نبو ولا شذوذ ، بل فيها التناسق والتوافق ، وفيها روح البحترى وطبعه الاصيل وحسه المرهف وذوقه اللماح ، وسكب ذلك في شعره فغدا أكثره مشرقا كالشمس الساطعة في يوم صحو جميل (١) ٠

٣ ـ جمال التصوير :

تميز البحترى بسليقته العربية الاصيلة وطبيعته الشعرية : فقال الشعر بما فيه من فطرة لم تعقدها العلوم ، ولم تفسدها الفلسفة ، ومن هنا عرف بلطف التعبير وجمال التصوير ، ولقد جمع في أسلوبه ولفاظه بين فضيلتى البداوة والحضارة ، فأما فضيلة البداوة ففى صدق التعبير وحسن الاداء ووضوح الدلالة ، وأما فضيلة الحضارة ففى رقة اللفظ وسهولة الاسلوب واجادة التصوير ٠

---

(١) انظر تاريخ الادب العربى في العصر العباسي الاول للدكتور أبى الخشب ص ٢٧٠ وما بعدها ٠

ويستحيل على شاعر أن تكون له مقدرة شعرية في جميع فنون الشعر ، ولكن الشاعر المطبوع التام الملكة يجيد في أكثر ما يقول ، وهكذا كان البحترى : أجاد في أكثر الاغراض أجادة تشهد له بها في كل غرض فحول النقاد ونستطيع أن نقول : انه أجاد في كل غرض ما عدا الهجاء ، فلنه كما قال أبو الفرج الاصفهانى كانت بضاعته فيه نزرة وجبده فيه قليل (١) .

ولقد عرف البحترى بأوصافه حتى ليحق القول بأنه (زعيم فن الوصف) في العصر العباسي ، وان نازعه ذلك ابن الرومى على خلاف في المنزع : والحق أنه كان بارعا في الوصف والتصوير ، سحرته الطبيعة بجمالها ، فوصف المروج الخضراء والحدائق الغناء والازهار الناضرة والسحب الماطرة والدرر والقصور ، وصور الربيع الباسم فأبدع وأمتع ، ولم يقف عند حدود المظاهر الحضرية بل صور البادية بذئابها وآسادها ، واذا أعوزه الحس لجأ الى الخيال كوصفه ايوان كسرى ... يقول ابن المعتز : لو لم يكن له الا قصيدته في ايوان كسرى - فليس للعرب سينية مثلها - وقصيدته في بركة المتوكل لكان أشعر الناس (٢) .

ومن غرام البحترى بالطبيعة وجمالها نراه يمزج بين جمال الطبيعة وجمال المرأة ، ويضفى صفات الطبيعة على المرأة وصفات المرأة على الطبيعة ، ففى ثنايا غزله من مجال الطبيعة وصف جميل للروض المزهر حيث يقول : (٣)

وهى في حلية الشباب تضاهى
جدة الروض شب وقار نواره

---

(١) انظر تجريد الأغانى لابن واصل الحموى ص ٢١٧ .
(٢) معالم الشعر وأعلامه ص ٢٦٦ وما بعدها .
(٣) الديوان ٢/٢٨ .

صبغ خد يكاد يدمى احمرارا
ورده في العيون أو جلنـــاره
. . . . . .
. . . . . .
باتفاق من خضرة الروض نضر
واختـــــلاف يجـــده نواره
كسفور الفتاة عن حسن خد
يتكافأ أبيضاضه واحـــوراره

والطبيعة والمرأة متداخلتان في شعر البحترى ودليل تداخلهما أنه حين يتغزل يشبه العذارى بالاغصان ، وحين يصف يشبه أغصان الشجر بالعذارى وذلك في مثل قوله (١) :

اذا غرد الطير فيهـــا ثنت
اليـــك الاغـــانى ألحانهـــا
كأن العـــذارى تمشي بهـــا
اذا هـــــزت الريح أفنـــانها
تعانق للقـــرب شـــجراؤها
عنـــاق الاحبـــة اســـكانها

« والطبيعة والمرأة دائما متداخلتان في احســـــاس الشعراء وخيالاتهم ، فهما معا حفل من الالوان والسحر والغموض والروعة ، وفيهما معا البريق والبهرج ومخايلة الشعراء » (٢) .

وللبحترى كثير من الصور الجذابة التى أبدع في تصـــويرها ، وتأنق في رسمها ، وهو حين يبدع في تصويره باحساس الفان الصادق

---

(١) ديوان البحترى ٢/٢٩٣
(٢) المرأة في شعر البحترى للدكتورة نعمات أحمد فؤاد ص ٤٣ ط دار المعارف ١٩٦٢

يشبه الرسام البارع الذى يعرف كيف يستخدم الالوان والاصباغ وللظلال واللمسات الفنية المعبرة عن احساسه ومشاعره ووجدانه .

وحين نتحدث عن البحترى يتبادر الى ذهننا وصفه للربيع في صورة حية مجسمة كلوحة فنية أبدع الفنان في رسمها ، فهى ناطقة بكل معانى الفتنة والسحر والجمال حيث يقول (١) :

أتاك الربيع الطلق يختالُ ضاحكا
من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز في غسق الدجى
أوائلَ ورد كن بالامس نوما
يفتقها برد الندى فكأنه
يبث حديثا كان قبلُ مكتما
فمن شجر رد الربيع لباسه
عليه كما نشرت وشيا منمنما
أحلَّ فأبدى في العيون بشاشة
كان قذى للعين اذ كان محرما
ورق نسيم الريح حتى حسبنه
يجيء بأنفاس الاحبة نعما (٢)

وهو في هذه اللوحة الفنية انما يقدم عملا فنيا يعبر فيه عن أفكار ارتسمت في ذهنه ممثلة في اقبالَ الربيع بحسنه وجماله وفي

---

(١) ديوان البحترى ٢/٤٣٤

(٢) المفردات : النيروز عند الفرس : أولَ أيام السنة الشمسية . غسق الدجى : ظلمة الليل . يبث : يذيع . الوشي : نقش الثوب . الطلق : ضاحك الوجه باسم الثغر . منمنم : مزخرف منقوش . أحلَّ : لبس ثياب الحل وفرغ من حجه . محرم : لبس ثياب الاحرام وتجرد من ثيابه المعتادة . القذى : ما يقع في العين فيؤلمها . نعم : جمع ناعم وهو قرير العين .

موعد اقباله من كل عام ، وفي مظاهر الفتنة والجمال التى تلازم الربيع ، وهو في ذلك يصور مشاعره المرهفة واحساسه الجميل ويصدر في ذلك عن عاطفة قوية هى عاطفة الحب لفصل الربيع والاياس به والانجذاب اليه (١) .

والبحترى في هذه القطعة يتمثل الربيع انسانا طلق المحيا باسم الثغر مشرق القسمات يختال ضاحكا من حسنه وجماله ، حتى يكاد يتكلم معبرا عن محاسنه ، والنيروز (وهو أوائل الربيع) قد نبه أوائل الورد التى كانت نائمة في براعمها وأيقظها في غلس الدجى حتى تتمتع بجمال الربيع وسحر الطبيعة ، وقد فتح براعمها برد الندى فكأنما نشر حديثا كان مكتما من قبل بتنوع هذه الورود والازهار واختلاف ألوانها وكثرتها وانتشارها في الروض ، وثمة شجر كان عاديا رد عليه الربيع لباسه المزركش ، فكأنما نشرت ثيابا موشاة منقوشة بمختلف الاصبا والالوان والاشكال ، وكانت من قبل مطوية ، وكأن هذه الاشجار كانت محرفة للحج فأحلت ولبست الثياب ، وكان منظرها قبل ذلك قذى للعين اذ كانت متجهمة جرداء ، والان أصبحت هاشة باشة باسمة ....

أما النسيم فقد رق وطاب وعبق شذاه بأريج الزهر وعبير الورد حتى كأنه حمل أنفاس الاحبة فأحدث هذه النشوة وأدخل المسرة في القلوب .

فأى تصوير وأى خيال هذا الذى استشف أسرار الطبيعة ومنحها الحياة والحركة وأسبغ عليها من صفات الانسانية ... من البشر والطلاقة والنوم واليقظة والحديث والعرى واللبس والتجهم والبشاشة .

---

(١) مناهج النقد الادبى للدكتور مصطفى يونس ص ٤٧ (الطبعة الاولى) .

وأى صياغة افتن فيها البحترى وأى موسيقى اسابت في ثنايا أبياته ٠٠ ان هذه ولا ريب ثمرة من ثمرات الابداع الفنى في التصوير ، ولقد اندمج الشاعر في الطبيعة اندماجا كليا ، ولم يكن مجرد رسام يصور المناظر ويسجلها ، بل ذهب الى ما وراء الصور والرموز (١) ٠

ومن غرر شعر البحترى في الوصف هذه القصيدة التى يصف فيها ايوان كسرى ، وقد دفعه الى زيارة هذا الايوان رغبته في أن يخفف عن نفسه آلام خطوب نزلت به فقام برحلة الى المدائن عاصـــــمة الفرس القديمة ، وكان ايوان كسرى لا يزال قائما بها ، وعلى أحـد جدرانه صورة لحرب دارت بين الروم والفرس أتقن الرسام في تصويرها وأجاد البحترى في وصفها ووصف الايوان وجلاله ودقة صـــنعه ٠٠٠ يقول البحترى في وصف ايان كسرى (٢) :

صنت نفسي عما يدنس نفسي
وترفعت عن جدا كل جبس
وتماسكت حين زعزعنى الدهر (م) التماسا منه لتعسي ونكسي
بلغ من صبابة العيش عنـدى
طففهـا الايام تطفيف بخس
٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
أسلى عن الخطـــوب وآسي
لمحل من آل ساسان درس
لو تراه علمت أن الليـــانى
جعلت فيه مأتما بعد عرس

---

(١) أنظر وصف الطبيعة في الشعر العربى للدكتور شـــوقى ضيف وآخرين ص ٦٤ وما بعدها ط دار مصر للطباعة ٠
(٢) الديوان ٢/٥٦ وما بعدها ٠

هـــو ينبيك عن عجائب قوم
لا يشاب البيان فيهم بلبس
فاذا ما رأيت صورة أنطـــا
كية ارتعت بين روم وفرس
والمنـــايا موائل وأبو شـــر
وان يزجى الصفوف تحت الدرفس
في اخضرار من اللباس على أصفر (م) يختال في صبيغة ورس
وعـــــراك الرجال بين يديه
في خفوت منهم واغماض جرس
من مشيح يهوى بعامل رمح
ومليح من الســـنان بترس
تصف العين أنهم جد أحيا
ء لهم بينهم اشارة خـرس
تغتلى فيهم ارتيـــابى حتى
تتقـــراهم يداى بلمس (١)

هذه صورة حية من صور الايوان تدل على براعة الشاعر ودقة

---

(١) المفردات : الجدا : العطاء • الجبس : الجبـــان اللئيم • تماسكت : ثبت • زعزعنى : حركنى بعنف ويريد نالنى بقطوبت • التماسا : طلبا منه ومحاولة • التعس : الهلاك أو الشر • والنكس : انقلاب الرجل على رأسه يريد الهزيمة والسقوط • البلغ جمع بلغة وهى ما يكفى من العيش • والصبابة : البقية • طفقتها : نقصتها • البئس : الغبن والظلم • آسي : أحزن • آل ساسان : أكاسرة الفرس • الدرس : الذى عفا أثره • يشاب : يخلط • أنطاكية : بلد الشام وقعت فيه معركة بين الفرس والروم وقد صـورت في الايوان • ارتعت : فزعت • موائل : قائمات • أنو شروان : أحد أكاسرة الفرس • يزجى : يسوق • الدرفس : العلم الكبير • الورس : نبات أصفر اللون • المشيح : الحذر الجد • عامل الرمح : صوره • المليح : الحذر • يغتلى : يزيد •

تصويره وتعبيره ، وقصيدته في وصف ايوان كسرى ترشدالى شاعريته وخصائص شعره وتدل على مكانته من البلاغة ومنزله في الشعر وطبقته بين الشعراء العباسيين ، وكفى البحترى مجدا أن تكون له مثل هذه القصيدة التى أعجب بها كثير من الشعراء ، وعارضها بعضهم كأمير الشعراء أحمد شوقى في العصر الحديث في قصيدته المشهورة في وصف آثار مصر وقصر الحمراء والتى مطلعها :

اختلاف النهار والليل ينسي فاذكروا لى الصبا وأيام أنسي

وقصيدة البحترى فريدة في الشعر العربى ، وقد سبق بها الشعراء الى فن جديد في الشعر وهو وصف الآثار والمدن البائدة .

وهذه القطعة التى معنا من أدق ما قيل في الوصف ، وقد بدأها بالتبرم بالعيش وشكوى الزمان مما دفعه الى الرحيل الى هذه الاثار الخالدة ليخفف عن نفسه آلام خطوب نزلت به ، ثم يذكر ما في هذا الايوان من عجائب الاثار ، واستطاع بريشة الفنان الموهوب أن يجسد مشهد معركة أنطاكية تجسيدا حيا في وصف بارع وجمال أخاذ .

لقد شهد في الايوان صورة كسرى وهو يحاصر أنطاكية ، وانك لو رأيت هذه الصورة لارتعت من حملة الفرس على الروم ، وكيف يرتاع المرء ويفزع وهو يشاهد صورة على الحائط ؟ هذا هو وجه الحسن ، فهو يذكر أنك حين ترى هذه الصورة لا يخطر ببالك أنها صورة ، وانما تحسب لصدق التصوير أنك في ميدان القتال والمنايا حوائل أمامك ، وأنو شروان يزجى الصفوف تحت اللواء ، ولم يفته أن يصف ما على الجنود من ألوان الثياب ، وما هم عليه من ايثار خفوت الصوت ، بين مشيح بالرمح ومليح بالسنان ، وهو يراهم جد أحياء وان لم يسمع لهم صوت ، لان في سماتهم مايدل على اكتفائهم بالاشارة كما يكتفى الخرس ، ثم يعود الى نفسه فيذكر أنه أمام

صورة ، ثم يغلب على حسه فيرتاب فيما يراه ، فليمس الصورة بيده ليعرف أحقيقة هي أم خيال ؟ (١) .

والمصور الحاذق هو الذي يسبغ على صورة أثواب الحيـــاة ، ويجعلها تزدان بالحركة والالوان والاشكال والظلال .

وللموسيقى دورها الفعال في تجسيم الصورة وابراز عاطفة الشاعر ، واذا ما قرأت هذه القصيدة أدركت ما فيها من جمال صوتي يعود الى توافقات موسيقية رائعة ، وقد ركز البحتري هذه التوافقات في القافية اذ أختار لنفسه قافية ثلاثية في القصيدة كلها حتى يطرزها بهذا التنميق والوشي البالغ ....

وقد وصل صاحبنا الى هذا التجسيم لا عن طريق القافية وحدها بل عن طريق التوفيق في الملاءمة بينها ، أو عبارة أدق بين الحـــرف الاخير منها وهو السين وبين الكلمات الاخرى في أبيـــات القصيدة كلها (٢) ، واستطاع أن يوفر كثيرا من القيم الصـــوتية في غاية من الدقة والجمال والابداع .

ونأتي الى لون آخر من التصوير أوجدته الحضارة العباسية بما فيها من ترف ونعيم ، وهو وصف بركة الجعفري التي أنشأها الخليفة المتوكل في قصره (الجعفري) وأجاد في ابداعها وجعل لها قنـــوات تصب فيها المـــاء بقوة ، ووضع فيها سمكا وصور على جدرانهـــا صورا وأحاطها بالبساتين المزدهرة ، فقال البحتري يصف هـــذه البركة (٣) :

---

(١) أنظر الموازنة بين الشعراء للدكتور زكي مبـــارك ص ١٥٠ وما بعدها ط المقتطف والمقطم القاهرة .

(٢) أنظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٦٧

(٣) الديوان ٣١٩/٢

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتهـــا
والآنســـات اذا لاحت مغانيهـــا
بحسبها أنها في فضـــل رتبتها
تعـــد واحـــدة والبحر ثانيهـــا
ما بال دجلة كالغيرى تنافســـها
في الحسن طورا وأطوارا تباهيها
كأن جن ســـليمان الذين ونوا
ابداعهـــا فأدقوا في معـــانيها
فلو تمـــر بها بلقيس عن عرض
قالت : هى الصرح تمثيـلا وتشبيها
تنصب فيهـــا وفود الماء معجلة
كالخيل خارجة من حبل مجـــريها
كأنما الفضـــة البيضاء سائلة
من السبائك تجرى في مجـــاريها
اذا علتها الصبا أبدت لها حبكا
مثل الجواشن مصقولا حواشـــيها
فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها
وريق الغيث أحيـــانا يباكيها
اذا النجوم تراءت في جـــوانبها
لـــلا حسبت سماء ركبت فيهـــا
لا يبلغ السمك المحصور غايتهـــا
لبعـــد ما بين قاصـــيها ودانيها
محفـــوفة برياض لا تزال ترى
ريش الطواويس تحكيه ويحكيها (١)

---

(١) المفردات : المغانى جمع مغنى وهو المنزل • تباهيهـــا : تفاخرها • ولى الشيء : قام به • ابداعها : اجادة عملها • عن عرض: على غرة • الصرح : القصر • معجلة : مستحثة • السبائك : جمع =

لا شك أن هذه الابيات تدل على مقدرة الشاعر في مجال الوصف، وعلى براعته في نقل الصورة بكل دقائقها وأجزائها نقلا أمينا صادقا ، فالبحتري قدير على تصدير ما يرى تصويرا ينقل اليك الصورة كاملة لتتأثر بها كل تأثر ، ثم لا يقف عند حدود هذا التصوير بل يصف لك احساسه وشعوره ازاء ما يصف ، فهو يشرك عينه وقلبه في رسم ما يريده ، وهو في هذا الوصف الرائع يذكر أن هذه البركة تسر رؤيتها العيون ، ولا سيما اذا برز الآنسات عليها يعرضن مفاتنهم ، ويكفى هذه البركة فضلا وعلو منزلة أنها أعلى من البحر مكانة حتى ان دجلة ليغار منها لشدة حسنها وجمالها ، ويحاول أن يباهيها أحيانا ، وكأنها الذين تولوا صنعها هم جن سليمان فافتنوا في تحسينها وأدقوا في معانيها ، حتى كأن (بلقيس) ملكة سبأ لو مرت بها عرضا لظنتها الصرح الممرد من القوارير الذى ورد ذكره في القرآن الكريم لملاسة سطحها وصفاء مائها ، وترى المياه فيها تتدفق عليها من جهات مختلفة على عجل وسرعة كأنها الخيل في حلبة السباق ، واذا هبت ريح الصبا أبدت فيها طرائق كأنها الدروع المصقولة الحواشي ، وترى الشمس أحيانا تضحك لها فتجيبها على ضحكها بمثله ، واذا بكت أوائل الغيث تبكى معها ، واذا تراءت فيها النجوم ليلا حسبتها لصفاء صفحتها سماء قد حفلت بالنجوم ، وترى السمك يتحرك فيها ولا يبلغ غايتها لاتساع جوانبها ، وتحدها الرياض الحالية بمختلف الازهار حتى لتحكى في تعداد ألوانها ريش الطاووس بل ان ريش الطاووس يحكيها .

والبحترى هنا مصور بارع يختار الالفاظ الملونة ، ويعرض معانى

= سبيكة وهى القطعة من الفضة ونحوها . الحبك : جمع حبيكة وهى الطريقة في الرمل . الجواشن : جمع جوشن وهى الدرع . الحواشي : الجوانب . حاجب الشمس : جانب منها . ريق الغيث : أوله وأفضله . القاصي : البعيد . والداني القريب وبينهما طباق . حكاه : شابهه .

من خيالاته ويحلى شره بالطباق ، ولكنها صنعة مقبولة غير متكلفة ، وقد لاحظنا قدرة البحترى على تصوير الحركة كقوله (تنصب فيها وفود الماء) (١) علاوة على ما أودع في هذه القطعة من حلية لصوت ورنينه فالالفاظ تعبر بأنغامها عن معانيها ، وقد عرف كيف يختارها وكيف يلائم بينها ، وكيف يرشح لقوافيه وكيف يهيىء لها مكانها ، ويشد الاذان لسماعها .

وعلى الجملة فقد كان البحترى شاعرا له مكانته الممتازة بين شعراء العربية على الاطلاق ، لا لان شعره حلق في كل أفق وطار في كل سماء ، وتناول في دقة تصوير كل جوانب الفكر ، ولكن لانه كان شاعر فطرة فياضة وطبع مستجيب وذوق ارتضع أنابيق الجمال ، ونعدى بحضارات صافية من عصارات الحياة الخالية من الغموض والالتواء ، فجاء به نبعا من الحسن ورحيقا من الجمال وفيضا من الروعة جادته الانسانية تراثا تباهى به ولحنا تردده وتوسيقى تستريح الى تكرارها .... ولقد كان بحق (٢) حسنة من حسنات التاريخ وفلتة من فلتات الزمن ودرة في تاج هذا الوجود ، فكتب لنفسه المجد والخلود .

دكتور/ على محمد على طلب
المدرس بقسم الادب بكلية اللغة العربية بأسيوط

---

(١) أنظر وصف الطبيعة في الشعر العربى ص ٦٩ وما بعدها .
(٢) أنظر تاريخ الادب العربى في العصر العباسي الاول للدكتور أبى الخشب ص ٢٧٤